

## الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في الشام

الكتاب: دراسات اقتصادية واجتماعية

المؤلف: عبدالكريم رافق

الناشر: مكتبة نوبل، دمشق 2002

مراجعة: عبد الرؤوف سنو  
أستاذ في الجامعة اللبنانية

قليلة هي الأبحاث والدراسات باللغة العربية التي تُعنى بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي لبلاد الشام أثناء الحقبة العثمانية. فمعظم المؤرخين العرب ركزوا اهتمامهم على الجانب السياسي لتاريخ المنطقة. عبدالكريم رافق اختار المنطقة نفسها كحقل لأبحاثه، إلا أنه أثر تاريخها الاجتماعي والاقتصادي لفهم الأحداث السياسية وتطوراتها، مقتدياً منهجية مدرسة "الحواليات" ويتجلى هذا في الكثير من مؤلفاته ودراساته التي لا مجال هنا لتعدادها.

الكتاب الذي نحن بصدده، هو مجموعة من تسع دراسات قام رافق بنشرها في تواريخ مختلفة. وهي تتميز بـ: 1 - يتعاطى القاسم المشترك لسبع منها بالبنى الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الشام، 2 - شكلت وثائق المحاكم الشرعية في دمشق وحلب وحماة وغزة، والى حد ما الوثائق البريطانية في ما يتعلق بالدراسة الثامنة، مادة أساسية استقى منها الباحث معلوماته، 3 - اعتمد الباحث في دراساته 1 و2 و6 و8 على منهجية Micro Research التي تتعمق في فهم التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية وتحليلها ومقارنتها والاستنتاج منها على مدى فترة زمنية قصيرة جداً، 4 - مسح المؤلف أوجهاً متعددة لتاريخ بلاد الشام الاجتماعي والاقتصادي في الحقبة العثمانية على امتداد أربعة قرون. والمعلوم أن مؤرخين كثيراً يبتعدون عن التاريخ العثماني المبكر، بسبب صعوبة الوصول الى مصادره. ويعتقد رافق، عن حق، أن وثائق المحاكم الشرعية أضافت بعداً جديداً في دراسة المنطقة وشكلت قاعدة لفهم التطورات السياسية.

أنت عناوين الدراسات التسع لكتاب رافق على الشكل الآتي:

1 - مظاهر اقتصادية واجتماعية من لواء حماة 942 - 943 / 1535 - 1536 .

- 2 - الفئات الاجتماعية ومصادر الثروة والسلطة في غزة في أواخر الخمسينات من القرن التاسع عشر.
- 3 - مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر.
- 4 - مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني.
- 5 - قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني.
- 6 - البنية الاجتماعية والاقتصادية لمحلة باب المصلى (الميدان) بدمشق 1825-1875 .
- 7 - العلاقات الزراعية في ولاية الشام في العهد العثماني.
- 8 - من تاريخ سورية الحديث: العلاقات السورية - التركية 1918-1926 .
- 9 - الهوية والانتماء في بلاد الشام في العهد العثماني.

تناول رافق في دراسته 1 و2 و6 مسائل بيع العقارات وشرائها كمؤشر للاستدلال على الهوية الاجتماعية للسكان في لواء حماة وفي غزة وفي منطقة الميدان بدمشق (باب المصلى)، وذلك من خلال الصكوك التي كانت تعقد في المحاكم الشرعية. فحدد الفئات الاجتماعية والطوائف والأسر المنخرطة في عمليات الإقراض والاستدانة، وعلاقة المدينة بالأطراف، وأنواع السلع التي كانت تباع بموجب قروض، ومدى مساهمة المرأة في تلك العملية الاقتصادية. ويشير في دراسته رقم (6) الى دور المسيحيين من الجنسين في حركة بيع العقارات أو شرائها. وفي دراسته حول لواء حماة وغزة، يعالج قضايا الزواج والطلاق والزيجات المختلطة والمهور وحجم الأسرة والأمن والأخلاق العامة، ليخلص الى أن الأوضاع الاقتصادية المتواضعة للحمويين حددت من حالات الطلاق وساهمت في الاستقرار الاجتماعي. ويذكر أيضاً أن سكان غزة توزعوا على خطط وأحياء محورها الجامع، وفق أصولهم المذهبية أو الاثنية أو الجغرافية، وأن الأسر المتقاربة في النسب تكثرت في أحياء، من دون أن يعني هذا أن الطوائف والجماعات انعزلت عن بعضها بعضاً، إذ حدث تعايش اجتماعي بين السكان والطوائف من أصول مختلفة.

وفي دراسته رقم (3)، يتناول مظاهر الحياة العسكرية والفرق المختلفة في بلاد الشام، ويلقي الضوء على الانكشارية وعلاقتها بالسلطة والقوى العسكرية الأخرى. ويرى أن فسادها تزامن مع انخراطها في الحياتين الاجتماعية والاقتصادية للسكان المحليين، مما أدى في نهاية الأمر الى تورطها في الشأن العام للبلاد. ومن طوائف العسكر، ينتقل رافق في دراسته رقم (4) الى طائفة الحرفيين، منوهاً بدقة تنظيمها لجهة الاشراف والتراتبية المهنية والتخصص وتوزيع الاسواق وأخلاق المهنة. ويذكر رافق أن بعض الطوائف الحرفية توزع على أساس ديني. كما يشير الى التأثير السلبي للانتاج الصناعي الأوروبي في الانتاج الحرفي في بلاد الشام، على رغم ان بعض الصناعات الحرفية ظلت تقاوم نتائجها طوال القرن التاسع عشر. ويختم دراسته بلفت انتباه المؤرخين الى وجوب تقصي العلاقة ما بين الطوائف الحرفية والطرق الصوفية.

ان قافلة الحج الشامي هي من أهم المظاهر الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في بلاد الشام. هذا ما يؤكد رافق في دراسته رقم (5)، استناداً الى تنظيمها وقيادتها وتوقيت انطلاقها وعودتها ومساراتها الرئيسية ومحطاتها. ولا تقتصر أهمية قافلة الحج في رأي رافق على ذلك، بل في القوى الاجتماعية المنخرطة فيها على طول الطريق الى الحجاز. وفي الحجاز، كان التجار المرافقون للقافلة يبيعون سلعهم ويعودون بسلع الهند أو البن اليمني. أخيراً، يرى رافق ان تنوع جنسيات الحجاج أغنى الحياة الثقافية ونشر التصوف بينهم.

وفي دراستيه 7 و9 عن العلاقات الزراعية وعن الهوية والانتماء في بلاد الشام، يتحدث رافق عن ثلاثة أنواع من ملكية الأرض، الخاصة والتابعة للدولة وأراضي الأوقاف بنوعها الخيري والذري، وعن طريقتين لاستغلال الأراضي الزراعية، عبر الاقطاع العسكري (نظام التيمار) والالتزام. وبسبب ما عاناه الفلاحون من ظلم وتعسف من الاقطاعيين والمتملزمين، فقد انتصر لهم العلماء وجاهروا في الدفاع عنهم أمام السلطات المحلية والمركزية. ويذكر رافق في الدراسة رقم (9) أن العلماء في دمشق اعتادوا توجيه النصيحة الى السلاطين وانتقاد السلطة الحاكمة في ما يتعلق بوجود اعطاء العرب دوراً أكبر في الحكم، وتطبيق الشريعة ورفض المساوى الاجتماعية والقوانين للإقطاعية الجائرة. كل هذه الأمور، يعتقد رافق، انها ساهمت في ظهور مشاعر الهوية العربية ومهدت لانبثاق وعي قومي عربي في ما بعد.

إن اهتمام الدكتور رافق ببلاد الشام يتعدى الحرب العالمية الأولى. ففي دراسته رقم (8) يتناول مرحلة زمنية كانت لها علاقة حميمة ببلاد الشام في أواخر الحكم العثماني. ويرى ان تعاوناً تحقق بين السوريين والأتراك غايته مناهضة مشاريع الحلفاء ضدهم. وفي كل الأحوال، كان الأتراك يسعون الى تحقيق مصالحهم القومية، من دون اعتبار لمصير سورية. ان توقيعهم على اتفاقية الهدنة مع الفرنسيين جعلهم يوقفون دعمهم للثورة السورية. وعندما ساءت علاقاتهم بالفرنسيين في العام التالي، عادوا الى دعم الثورة السورية. ويشير رافق في الختام الى ان تعاون السوريين مع الأتراك لم يكن يعني موافقتهم على عودة الحكم العثماني.